

منهج الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) بين النحو و التفسير المفصل و الكشف انموذجاً

م. د. حسن سعيد عبد هاشم الموسوي

جامعة بابل / كلية التربية للعلوم الإنسانية / بابل / العراق

ملخص البحث :

يعنى هذا البحث بمنهج الزمخشري في كتابيه المفصل والكشاف، مسلطاً الضوء على إسهاماته في الدرسين النحوي والتفسيري، فقد اتسم منهجه في المفصل بالتنظيم والدقة، مع اعتماده السماع والقياس وترجيحه آراء البصريين دون تعصب، أما في الكشف فقد استثمر خبرته اللغوية والبلاغية في تفسير القرآن الكريم وإبراز وجوه إعجازه، مع تأثر بعض آرائه التفسيرية بأصول المذهب المعتزلي الذي ينتمي إليه.

الكلمات المفتاحية : الزمخشري – المفصل – الكشف .

Al-Zamakhshari's (d. 538 AH) approach between grammar and detailed exegesis, with Al-Kashshaf as a model

Dr. Hassan Saeed Abd Hashim Al-Musawi

Abstract :

This research examines Al-Zamakhshari's methodology in his two works, Al-Mufasssal and Al-Kashshaf, highlighting his contributions to the fields of Arabic grammar and Quranic exegesis. His approach in Al-Mufasssal was characterized by organization and precision; he relied on linguistic usage (al-sama) and analogical reasoning (al-qiyas), favoring the views of the Basran school without dogmatism. In Al-Kashshaf, he leveraged his linguistic and rhetorical expertise to interpret the Holy Quran and elucidate aspects of its inimitability, while some of his exegetical views were influenced by the principles of the Mu'tazilite school to which he belonged.

Keywords : Al-Zamakhshari – Al-Mufasssal – Al-Kashshaf.

مقدمة البحث :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين إماماً بعد ...

فمنذ أن أشرق علم النحو على يد أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) بعد أن أودعه الإمام علي (عليه السلام) الرقعة وقال : ((إنح هذا النحو)) وسمي النحو نحواً تيمناً بهذه المقولة وحتى ظهور أول كتاب في هذا العلم ألا وهو كتاب سيبويه المشتمل على علم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) واجتهاد سيبويه مع بعض آراء من عاصرهم بقي النحو يخطو خطوات أولى في طريق تكامله وتطوره ، ومع مرور الزمن أخذ النحو حيزاً واسعاً من فكر المتأخرين ، ومن هؤلاء الذين وضعوا لمسات يحدى بها في هذا الفن - وأقصد النحو- الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) فألف كتابه (المفصل في صناعة الاعراب) في زمن قياسي ، إلا أن الزمخشري لم يكتفِ بدراسة علم النحو فحسب ، بل ذهب ليضع اسمه ضمن قائمة المفسرين للقرآن الكريم فألف كتابه المسمى (الكشاف) وهو بجوار مكة المكرمة، وقد استفاد من مكنوناته اللغوية والنحوية ووظفها في تحليله لآيات الكتاب العزيز، إلا أنه لم ينسلخ من عقيدته ومذهبه الديني فوجّه تفسيره لبعض الآيات بما يتوافق مع ما يتبناه من معتقدات دينية وحاول ليّ بعض النصوص لتحقيق هذا الهدف ، لذا جاءت هذه الدراسة لتكشف عن منهجه النحوي والتفسيري في كتابيه (المفصل والكشاف) وتوازن بينهما ، والله الموفق.

التمهيد :

١. التعريف بالمؤلف :

هو الإمام الكبير أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري ولد بزمخر سنة (٤٦٧ هـ) وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم وإليها نسب ، زار بغداد عدة مرات وأخذ الأدب عن أبي علي الحسن بن المظفر

النيسابوري، وأبي مضر محمود بن جرير الاصبهاني وسمع من أبي سعيد الشغاني وغيرهم سافر إلى مكة المكرمة وجاور بها زماناً فقليل له جار الله ، معتزلي المذهب وكان عالماً في اللغة والنحو والعروض والأدب والبلاغة والتفسير والشهادات والحديث والفقه وعلم الكلام والمنطق، توفي في جرجانية بخوارزم بعد رجوعه من مكة سنة (٥٣٨هـ)^(١).

٢. تلاميذه : تتلمذ على يد جار الله الزمخشري طائفة كبيرة من طلاب العلم نذكر منهم ما يأتي :

أ- علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس العلوي.
ب- علي بن محمد العمراني الخوارزمي أبو الحسن الأديب الملقب بحجة الافاضل وفخر المشايخ (ت ٥٦٠هـ).

ت- أبو الفضل البقالي الخوارزمي الأديمي محمد بن أبي القاسم الملقب بزين المشايخ، وقد جلس مكان الزمخشري بعده.

ث- أبو يوسف يعقوب بن علي بن محمد بن جعفر البلخي وكان أحد أئمة النحو والأدب^(٢).

٣. آثاره العلمية : ترك الزمخشري لنا ثروة هائلة من المؤلفات في شتى المجالات ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

١. الأحاجي النحوية وهو كتاب المحاجة نفسه .
٢. أساس البلاغة وهو معجم لغوي اعتمد فيه طريقة مراعاة أوائل الأصول وثوانيتها وثواتها وهو أسلوب مبتكر في طريقة تأليف المعاجم لم يسبقه به أحد وسار على نهجه الكثير من المؤلفين في المعاجم وهو الأسلوب المعتمد حالياً.
٣. الرانض في الفرائض.
٤. أعجب العجب في شرح لامية العرب.
٥. الأنموذج في النحو وهو مقتضب من المفصل.
٦. الفائق في غريب الحديث.
٧. القسطاط في العروض.
٨. المستقصى في أمثال العرب.
٩. الكشف وهو كتاب تفسير.
١٠. نكت الاعراب في غريب الإعراب وهو في غريب اعراب القرآن الكريم ، وغيرها من المؤلفات القيمة.

المبحث الأول : التعريف بكتاب المفصل وبيان منهج الزمخشري فيه :

١. التعريف بكتاب المفصل في صناعة الاعراب :

نال كتاب (المفصل في صناعة الاعراب) من الشهرة ما لم ينله - بحسب علمي- كتاب قبله إلا كتاب سيبويه ولا بعده إلا كتاب الكافية لابن الحاجب ، وقد ذكر (الزمخشري) في مقدمة الكتاب إن الدافع لتأليفه هو حاجة المسلمين إلى معرفة كلام العرب وشفقته على أشياعه من حفدة الأدب فيقول : ((ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب ، وما بي من الشفقة والحدب على أشياعي من حفدة الأدب لإنشاء كتاب في الاعراب، محيط بكافة الأبواب ، مرتب ترتيباً يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السعي ويملاً سجالهم بأهون السقي فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصل في صناعة الاعراب مقسوماً أربعة أقسام : القسم الأول في الأسماء ، والقسم الثاني في الأفعال ، والقسم الثالث في الحروف ، والقسم الرابع في المشترك في أصولها ، وصنفت كلاً من هذه الأقسام تصنيفاً ، وفصلت كل صنف منها تفصيلاً ، حتى رجع كل شيء إلى نصابه واستقر في مركزه ولم ادخر فيما جمعت فيه من الفوائد المتكاثرة ونظمت من الفرائد المتناثرة مع الإيجاز غير المخل والتلخيص غير المعمل مناصحه لمقتبسيه))^(٣) ، وقد تأثر الزمخشري في كتابه (المفصل) بكتاب سيبويه ويمكن ملاحظة ذلك من خلال المقارنة بين الكتابين من حيث المنهج والتقسيمات والتعريفات وأسامي الأبواب أو من حيث طريقة الاستشهاد ونقل النصوص فكما أن أثر الخليل واضح في كتاب سيبويه كذلك أثر سيبويه واضح في (المفصل) وكثيراً ما كان الزمخشري ينقل عبارة سيبويه بلفظها و ربما غير فيها بنقص أو زيادة والغالب إنه يشير إلى سيبويه في ذلك وقد ينقل

دون الإشارة إليه ، ونظرًا لأهمية الكتاب وقيّمته العلمية فقد كثرت شروحه وشروح أبياته والكتب التي ألّفت في نظمه واختصاره والرد عليه وحواشي تلك الشروح والكتب ومنها :

أ- شرح موفق الدين بن يعيش (ت ٥٦٤٣هـ) : وهو أحسنها وأكثرها فائدة ، يقول ابن يعيش في مقدمة شرحه للمفصل ((إنّه كتاب جليل قدره نابه ذكره قد جمعت أصول هذا العلم فصوله وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، ألا أنّه مشتمل على ضروبٍ ، منها لفظٌ أغرّبت عبارته فأشكل ، ولفظٌ تتجاذبه معانٍ فهو مجمل ، ومنها ما هو بادٍ للإفهام ، ألا أنّه خالٍ من الدليل مهمل))^(٤).

ب- الايضاح في شرح المفصل لابن الحاجب (ت ٥٦٤٦هـ) : يرى ابن الحاجب (ت ٥٦٤٦هـ) إنّ الدافع لتأليف كتاب (المفصل) هو افتقار الناس قبل كتابه إلى تعلّم العربية بكتاب صالح للتعليم ويدل على ذلك تصريح الزمخشري به^(٥).

٢. عصر التأليف :

العصر الذي ألّف فيه الزمخشري كتابه (المفصل) يُعد عصر الموسوعات العلمية ، والتوسع في المسائل وتفريعها وتعميق البحث فيها ، وكان البحث النحوي قبل هذا الكتاب يركز على نقطتين:

أ- بحث الأبواب النحوية يتم وفق نظرية العامل ، فنجد أنّ النحاة قبل هذا الكتاب تغطى على أبحاثهم نظرية العامل فيقسمون الأبواب وفقها ويحددون الحدود تبعًا لمعاييرها^(٦).

ب- جعل النحاة نصب أعينهم قضية العمل ؛ أي الشكل الاعرابي ، أو الحركة الاعرابية ، فقد ألّفه في سنة وأربعة عشر وقد شرع في تأليفه في غرة رمضان سنة (٥١٣هـ) وفرغ منه في غرة محرم سنة (٥١٥هـ)^(٧) ، ويعلل الدكتور حسن عون لمن يتعجب من تلك المدة الزمنية القليلة التي ألّف فيها المفصل ، فيقول : ((قد يبدو غريبًا أن يكون المفصل على هذه الدرجة من التقدير وهو الذي لم يكلف الزمخشري في تأليفه أكثر من سنة وأربعة أشهر ، غير أنّ هذه الغرابة تزول حينما ندرك أنّ المادة النحوية كانت معروفة لديه وماثلة في تصوره بأبعادها وتفاصيلها ولم يكن أمامه سوى وضع المنهج وتوزيع المادة))^(٨) فالنحاة قبل الزمخشري قد قامت أبحاثهم وفق نظرية العامل والعمل ، فهم يخلطون ويمزجون بينهما ، أما البحث عند أبي القاسم الزمخشري فأنّه قد اتخذ اتجاهًا جديدًا.

٣. منهجه في التأليف :

يعدّ كتاب المفصل قفزة جديدة في عالم النحو من حيث المنهج الذي اتبعه الزمخشري في تأليفه فهو قريب الشبه بالمؤلفات الحديثة من حيث احتوائه على مقدمة وفهرس للموضوعات ومعلوم أنه ليس مختصًا بالأعراب وصنّعه فحسب وإنّما شمل بحوثًا صرفية ولغوية إضافة إلى البحوث النحوية فالزمخشري لم يعالج جزئيات النحو على أنّها موضوعات مستقلة كما كان يصنع من سبقه كما لم يكن يعالج بعض الظواهر اللغوية التي تخدم المادة النحوية مثل قضية الأصوات وقضية العامل ولكنّه اتّجه أساسًا إلى موضوع النحو ومادته ومنهجه يعمل في ذلك عقله ويبتدع لذلك خطة بسيطة وشاملة في الوقت نفسه ثم يظهر شخصيته وتحرره من مواجهة بعض المسائل الجزئية إثناء التنفيذ والتطبيق ولأول مرة في تاريخ النحو العربي نجد أنّ المؤلف يعرض منهجه في التأليف ويذكره في مقدمة الكتاب ولم نشهد ذلك عند المؤلفين السابقين له في هذا الباب فكتاب سيبويه وهو أقدم كتاب في النحو وصل إلينا يخلو من المقدمة وكذلك الكتب التي جاءت بعده كإصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٥٢٤٤هـ) وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٥٢٧٦هـ)^(٩) ، ويبدو لنا إنّ الزمخشري قد تأثر بـ (الزجاجي ت ٥٣٣٧هـ) و(أبو علي الفارسي ت ٥٣٧٧هـ) من حيث وضع المقدمة ، فالزجاجي بدأ كتابه (الايضاح في علل النحو) بمقدمة مطولة وكذلك الحال بالنسبة لأبي علي الفارسي في كتابه (الايضاح العضدي) وقد ذكرنا سابقًا قوله في الدافع لتأليفه وعرض السبب الذي ألّفه من أجله ، وقد خصص الزمخشري القسم الأول للأسماء وقد استغرق هذا القسم المساحة الأكبر من الكتاب وقد تحدث فيه عن أنواع الاسم وبين فيه أنّ الاسم المعرب على نوعين ثم تحدّث باختصار عن الممنوع من الصرف وعن وجوه إعراب الاسم ثم تحدّث عن المرفوعات وذكر منها المبتدأ والخبر أمّا القسم الثاني فقد تناول فيه الأفعال وتحدّث عن الماضي والمضارع والأمر وتحدث عن وجوه إعراب الفعل المرفوع والمنصوب والمجزوم ثم تحدث في القسم الثالث عن الحروف وهي حروف الإضافة ، والمشبّهة بالفعل ، والعطف ، والنفي ، والتنبيه ، والنداء ، وحروف التصديق والإيجاب وغيرها ، أمّا القسم الرابع فقد تحدث فيه عن المشترك والإمالة والوقف والقسم وتخفيف الهمزة والتقاء

الساكنين وزيادة الحروف وابدالها والاعتلال... الخ وقد ذكر الزمخشري في كتابه ((المفصل)) الخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين وتعرض لها وكان يرجح في الغالب رأي البصريين ولا عجب في ذلك فالمدرسة البصرية تنجح إلى استعمال العقل والقياس وهو كمعتزلي المذهب يحترم العقل ويقدره الا إنه لم يكن متعصباً لمذهب من المذاهب النحوية فقد أخذ بأراء الكوفيين وآراء أبو علي الفارسي وابن جني اللذين كانا يمثلان المذهب البغدادي وقد ينفرد بأراء خاصة به لم يسبق أحد من النحاة إليها. وأكثر من تأثر به من النحاة (سيبويه) وهذا واضح في الكتاب فكما إن أثر الخليل واضح في كتاب سيبويه كذلك أثر سيبويه واضح في المفصل وكثيراً ما كان الزمخشري ينقل عبارة سيبويه بلفظها ومع هذا فقد يخالفه ويأخذ برأي غيره ، كأخذه برأي الخليل في أن الفاعل أصل المرفوعات والمبتدأ محمول عليه ومذهب سيبويه بالعكس^(١٠) ، وكأخذه برأي الزجاج في أن فعل التعجب في نحو ((أكرم يزيد)) أمرٌ على حقيقته ، في حين كان يذهب سيبويه إلى أنه ماضٍ أخرج بلفظ الأمر للتعجب^(١١) ، ومن المسائل التي ساير بها البصريين مسألة (هلم) فقال عنها: إنها مركبة من حرف التنبيه مع لم محذوفة منها الفها عند اصحابنا ويقصد البصريين وعند الكوفيين من هل مع أم محذوفة همزتها ، ويرى أيضاً جواز القول ((إن زيداً لسوف يقوم)) بفصل لام الابتداء استناداً لرأي البصريين ولا يجوز الكوفيين ، وذكر في الفائق ما نصّه : ((وعن النظر – ويقصد النظر بن شميل- أقش من الجدري والمرض: بمعنى برأ ، وأثبت غيره قش من مرضه ، بمعنى تقشّش ، وما أرى من تكثر التقاء مضاعف الثلاثي والرباعي يكاد يستهويني إلى الايمان بمذهب الكوفيين لولا تنحو أصحابنا وتشدهم))^(١٢) ، وهذا لا يعني مسايرته للبصريين في جميع المسائل النحوية فقد يرجح رأي الكوفيين فعلى سبيل المثال يقول: ((كيمه ، ولمه ، وعمه)) مجرورة عند البصريين منصوبة عن الكوفيين بفعل مضمر كأنك قلت كي تفعل ماذا ، وما نرى هذا القول بعيداً عن الصواب^(١٣) ، وكذلك وافق الكوفيين في زيادة الفعل (حدث) على الأفعال المتعدية إلى ثلاثة مفاعيل^(١٤) كقول الحارث بن حلزة الشكري :

إِنْ مَنَعْتُمْ مَا تَسْأَلُونَ فَمَنْ حُدْنُمُوهُ لَهُ عَلَيْنَا الْعَلَاءُ

ووافق الكوفيين أيضاً في أن يكون البدل منه نكرة، كما في قوله تعالى: ((مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ)) [سورة النور: من الآية ٣٥]^(١٥) ، وقد يختار بعض أراء أصحاب المذهب البغدادي كموافقته مثلاً لأبي علي الفارسي في (ما) اذا اتصلت بـ (نعم) تعرب نكرة تامة منصوبة على التمييز كقولنا (نعماً محمد)^(١٦) وقد ينفرد بأرائه الخاصة ولا يرجح رأياً على آخر ومن ذلك ذهابه إلى أن رافع الخبر هو الابتداء فقط^(١٧) ، وإلى أن (لن) تفيد تأكيد النفي وغيرها^(١٨) ، وضمن تعليقه على المسائل النحوية والقضايا الصرفية نراه يستعمل الألفاظ والتعابير البسيطة الخالية من التعقيد اللفظي والفلسفي الذي سلكه النحاة فيما بعد فنلاحظ أنه استعمل ألفاظ: أجاز ، ويجوز ، والقياس ، والوجه ، والشائع الكثير ، والذي عليه الفصحاء ، وليس يقليل ، وقياس ذلك ليدل على أن المسألة مقبولة عنده ، وفي المقابل استعمل الألفاظ لا يجوز ولم يجز وهو قليل ، وشاذ ، وما شذ ، وغير قياسي ، وليس بقياس ، ومن غير وجه ، ويمتنع ، وهو مسترذل ، ولا تقول ، وضعيفة وغيرها ليدل على أن المسألة غير مقبولة عنده.

٤. مصادر الكتاب :

أ- القرآن الكريم وقراءاته : أجمع العلماء على أن القرآن الكريم هو المصدر الأول والأساس للاستشهاد في اللغة العربية ولا جدال في أن الزمخشري يعدّ القرآن هو الشاهد الاساسي عنده فاستخلاص قواعد النحو يقوم عليه ولذلك نجد (المفصل) مليئاً بالاستشهاد بالآيات القرآنية وهي أكثر عدداً من غيرها ، ومثال من القرآن عنده يقول: ((ويستعمل ساء استعمال بنس ، قال تعالى : (ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا))^(١٩) وأما القراءات فكان يوازن بينها يقبل بعضها ويرفض بعضها الآخر ويصفها بالغرابة والضعف والشذوذ.

ب- قلّ عند الزمخشري الاستشهاد بالحديث الشريف وربما يكون قد ساير (سيبويه) في هذه المسألة ومعلوم مدى تأثر (الزمخشري) بـ (سيبويه) ولكنه لم يصرح برفض الاستشهاد به، واستشهد بالحديث على لغة (الكلوني البراغيث) وله مقولة تجعلنا نتيقن من ابتعاد الزمخشري عن الحديث نوعاً ما يقول: ((وحذف جواب لو كثير في القرآن والشعر))^(٢٠) ولم يصرح بذكر الحديث النبوي

ت- يمثل استشهاد الزمخشري بالشعر علامة فارقة بحق فلقد استشهد بـ ((الشعر الجاهلي والاسلامي والاموي والعباسي ، واستشهد بأشعار المولدين [امثال أبي تمام وأبي نواس])) ويرى الاستاذ سالم نادر عطية في كتابه (الزمخشري وجهوده في النحو) ((إن الزمخشري قد تعرض للنقد اللاذع من خصومه- وهم على حق- لأنه استشهد بأشعار مجهولة القائل ومن يدري فربما تكون منتحلة أو لأشخاص غير فصحاء))^(٢١).

ث- استشهد الزمخشري بالأمثال العربية في عدة مواضع من الكتاب ، ومن الجدير ذكره إنه قد يذكر اللغة وهو يقصد اللهجة فيقول لغة الحجاز ولغة هذيل مثلاً وقد يذكر اسم القبيلة فقط نحو: بني أسد.

٥. أهمية كتاب المفصل :

يعد كتاب (المفصل في صناعة الاعراب) من أشهر كتب الزمخشري التي تصدّت لمعالجة القضايا النحوية، وأكثرها أهمية ؛ لأنه أهم كتاب يتداول بين دارسي النحو العربي من عصر الزمخشري حتى عصرنا اليوم^(٢٢)، فهو يعد بحق مرحلة متقدمة تامة النمو، وحلقة كاملة الوضع في سلسلة البحوث النحوية وقد بلغ منزلة عظيمة فقد وصف بأنه أفضل ما ألف في النحو في تلك الفترة^(٢٣). ويعد النقاد ثاني كتاب في النحو بعد كتاب سيبويه^(٢٤)، فالمفصل كان أهم كتاب يدرس في مصر والشام في عصر الأيوبيين. وبلغ من تعظيم قدر هذا الكتاب أنّ الملك المعظم (عيسى الأيوبي) قد شرط لمن يحفظه مائة دينار^(٢٥) ، ويذكر الدكتور علي عبد الواحد وافي أنّ جماعة المتأخرين ((جاءوا بمذهبهم في الاختصار والاستيعاب لجميع أبواب العلم فوضعوا أهم كتب النحو والصرف ، وأكملها وأدقه ، وأكثرها تهذيباً وتنقيحاً ومن أشهرهم الزمخشري صاحب المفصل في النحو وابن الحاجب))^(٢٦) ، وقد شغف به الدارسون واهتموا به ، وقد نظموا شعراً تسهلاً لحفظه وتعظيماً لقدره، ومن الذين نظموا شعراً الشيخ (أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ)) كما نظم (ابن مالك) في كتاب سماه (المؤصل في نظم المفصل)^(٢٧).

٦. الزمخشري وأصول النحو :

أ- موقف الزمخشري من السماع :

الزمخشري كباقي البصريين ، آمن بالسماع ، وولع به ، ووسع النحو ، وعمل على إخضاع كلام العرب له ، ولكنه مع ذلك قد يترك القياس ، إذا وجد داعياً لذلك ويميل إلى السماع ، ومن ذلك ما يأتي :

١. لقد أباح ترك القياس والعدول عنه عند البناء على السكون متى توفرت لذلك ثلاثة أسباب ، وهي للهرب من التقاء الساكنين نحو: (هؤلاء) ، ولئلا يتبدأ بساكن لفظاً أو حكماً كالكاف التي بمعنى (مثل) والتي هي ضمير ، ولعروض البناء وذلك نحو : باحكم ولا رجل في الدار ، ومن قبل... الخ .

٢. قد يفضل السماع على القياس – في بعض الأحيان- حيث إنه من المحال أن يعامل ما ورد بالسماع معاملة القياس ، يقول : ((وأما السماعي فنحو: الرجا والرحي والخفاء والإباء وما أشبه ذلك مما ليس فيه إلى القياس سبيل)).

٣. وقد يأخذ بالشيء لأنه كثير نحو قوله : ((وحذف المفعول به كثير))^(٢٨).

ب- موقف الزمخشري من القياس :

سلك الزمخشري سبيل القياس على الرغم مما سبق قوله ، فكان يرفض ما يخالف القياس حيث يقول : ((ويقع الاسم المفرد على الجنس ثم يميز منه واحدة بالتاء وذلك نحو تمر وتمرّة وحنظل وحنظلة وإنما يكثر ذلك في الأشياء المخلوقة دون المصنوعة نحو سفينة ولبنة فهذا ليس بقياس)) ، وكان يرى أنّ القياس أن يتطابق التذكير والتأنيث في الواحد والجمع وكان يحكم القياس في الكثير من القضايا ولا يأخذ بالقليل النادر أو الشاذ إذا كان مخالفاً للقياس.

المبحث الثاني : التعريف بكتاب الكشاف وبيان منهج الزمخشري فيه :

١. التعريف بالكتاب :

ألف الزمخشري كتاب الكشاف وهو مجاور لمكة المكرمة بعد أن جاوز الستين من عمره وأتمه في سنتين وبضعة أشهر^(٢٩)، وهو كتاب تفسيري يكشف عن وجوه الإعجاز القرآني البلاغية والأسلوبية واللغوية احتشد له ليخرجه في أبهى حلة بيانية ، واشتهر وعُرف عند الباحثين في حقل التفسير واللغة باسم (الكشاف) تارة ، وباسم (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) تارة

أخرى ، ويعود السبب إلى ذلك أنّ الزمخشري ذكر في مقدمة الكتاب أنّ التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها ما يشبه الكشف إشارة للاسم الاول، وذكر أيضًا أنّ هذا الكتاب كشف عن أسرار و غوامض محتجبة وراء الستار لا يمكن أن يستبدل الستار عليها إلا بعد التعمق الشديد فيها وهذا يحتاج إلى من لديه خبرة في هذا المجال فاستدل بذلك على العنوان الثاني للكتاب.

وقد كان الباعث لتأليف الكتاب هو اجتماع المعتزلة عنده والطلب منه أن يملي عليهم الكشف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل ، واستشفعوا عليه بكل عظيم إلى أن رحل إلى مكة وهو مع كل هذا يستعفي حتى قابل الأمير الشريف أبا الحسن بن وهاس فطلب منه مثل طلب المعتزلة فاذعن له ووافق على طلبه واتم تأليف الكتاب في أكثر من ثلاثين سنة^(٣٠).

٢. بيان منهج الزمخشري في تفسير الكشف :

يمكن ايجاز منهج الزمخشري في تفسير الكشف بما يأتي :

أ- الانتصار لمذهبه ولو بليّ اعناق الآيات وتأويلها على غير لسان العرب ، فمثلاً في قوله تعالى : (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) [سورة البقرة : من الآية ٢٥٥] نجده يذكر أربعة أوجه في معنى (الكرسي) وهي على النحو الآتي :

١. إنّ كرسيه لم يضق عن السماوات والارض لبطته وسعته ، وذكر مفردة (الكرسي) أريد بها التعظيم فقط إذ لا وجود له في الحقيقة ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [سورة الزمر : الآية ٦٧] إذ لا وجود لقبضة وطّي يمين- بحسب رأيه-.

٢. إنّ المراد بالكرسي العلم وسُمّي بذلك من باب التسمية بالمكان وهو كرسي العالم.

٣. إنّ المراد بالكرسي الملك وسُمّي بذلك حملاً على كرسي الملك.

٤. إنّ المراد بالكرسي هو أنّه تعالى خلق كرسيًا بين يدي العرش ودونه السماوات والارض ، وهو إلى العرش كأصغر شيء^(٣١).

وفي معرض حديثه عن آية الوضوء من قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ) [سورة المائدة : من الآية ٦] رجح حكم الغسل للأرجل لا المسح قائلًا : ((الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها ، فكانت مظنة للإسراف المذموم المنهي عنها ، فعطفت على الثالث الممسوح لا لتمسح ، ولكنه لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها ، وقيل إلى الكعبين فجاء بالغاية إمطة لظن ظان يحسبها ممسوحة ؛ لأنّ المسح لم تضرب له غاية في الشريعة))^(٣٢) ، ورأيه هذا مردود بأمرين هما :

١. إنّ دخول فعل المسح بعد الواو العاطفة قطع الطريق على من يريد حمل (الأرجل) على (الوجوه) و(الأيدي) وجعلها بحكم الغسل لا المسح إذ لا يمكن أن نقول مثلاً : قتلنا وجه زيد ورأسه ومسحنا بكتفه ويده بنصب (اليدين) عطفاً على وجه زيد مع انقطاع الكلام بجزئه الاول ، أما من قرأ (أرجلكم) بالنصب وورودها منصوبة في المصحف الشريف فهو من باب العطف على المحل ، فحمل (الرؤوس) بالنصب والباء أفادت التبعية وفهم من وجودها أنّ المسح لا يشمل الرأس بأكمله فضلاً عن امكانية الاكتفاء عنها واستقامة المعنى بدونها.

٢. إنّ قضية الإسراف والتبذير في الماء التي تبجح بها الزمخشري لأثبات حكم الغسل للأرجل مردودة فلو كانت القضية بهذا الشكل لكانت الوجوه أولى من الأرجل في حكم الاقتصاد بالماء فكيف جعل لها حكم الغسل بصريح الصيغة الامرية (فاغسلوا وجوهكم).

ب- استخدام الزمخشري أسلوب (الفنقلة) في تفسيره وهذا الأسلوب يتمثل في استخدام تراكيب معينة مثل ((فإن قلت قلت)) أو ((فإن قيل قلت)) حيث يقدم سؤالاً افتراضياً ويجيب عليه بنفسه ، فأراد بهذا الأسلوب لفت انتباه القارئ الكريم إلى ما يريد إيضاحه وتبينه ، ومن ذلك قوله في عدة المطلقة بمعرض حديثه عن قوله تعالى : (وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) [سورة البقرة : من الآية ٢٢٨] ((فإن قلت : يتربصن ثلاثة قروء ، كما قيل تربص أربعة أشهر؟ وما معنى ذكر الأنفس؟ قلت: في ذكر الأنفس تهيج لهنّ على التربص وزيادة بعث ؛ لأنّ فيه ما يستتكن منه فيحملن على أن يتربصن ، وذلك أنّ أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمن أنفسهن))^(٣٣) ، وفي قوله تعالى : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ

الظَّالِمِ أَهْلُهَا) [سورة النساء : من الآية ٧٥] ذكر الزمخشري أنه لو قيل : لم أنت الموصوف وذكَر الوصف؟ فيجاب عن ذلك بالقول : ((هو وصف للقريبة إلا أنه مسند إلى أهلها ، فأعطى اعراب القرية لأنه صفتها ، وذَكَر لإسناده إلى الال ، كما تقول في هذه القرية التي ظلم أهلها، ولو أنت فقيل : الظالمة أهلها ، لجاز لا لتأنيث الموصوف ولكن لأنَّ الأهل يُذكَر ويؤنث))^(٣٤).

ت- وظف الزمخشري خبرته في مجال النحو لتبيين دلالة الاستعمال القرآني للمفردات بدقة وعناية ، ففي قوله تعالى : (وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ) [سورة البقرة : من الآية ٢٥] بحث الزمخشري في سر الاختيار لصيغة اسم المفعول (مطهرة) بدلاً من اسم الفاعل (طاهرة) فقال : ((فإن قلت : هلاً قيل طاهرة؟ قلت في (مطهرة) فخامة لصفتها ليست في (طاهرة) ، وهي الاشعار بأنَّ مطهراً طهره ، وليس ذلك إلا الله عز وجل المرید بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية في ما أعد لهم))^(٣٥) ، وفي معرض حديثه عن قوله تعالى : (فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَآشَهِدُ بَأَنَّا مُسْلِمُونَ) [سورة آل عمران : الآية ٥٢] قال : ((إلى الله)) من صلة أنصاري مضمناً معنى الإضافة ، كأنه قيل : من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصرونني كما ينصرنني ، أو يتعلق بمحذوف حالاً من الياء ، أي من أنصاري ، ذاهباً إلى الله ملتجأ إليه ، فمن أنصار الله ، أي أنصار دينه ورسوله))^(٣٦).

ث- لم يهمل الزمخشري جانب القراءات القرآنية المتعددة للآيات الكريمة ، فكان يذكرها ويعلق عليها ففي معرض حديثه عن قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) [سورة الحج : الآية ٢٥] قال : ((سواء)) بالنصب قراءة حفص ، والباقون على الرفع ، ووجه النصب أنه ثاني مفعولي جعلناه ، وفي قراءة الرفع (سواء) الجملة مفعول ثانٍ))^(٣٧) ، وفي قوله تعالى : (وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْفُضْ فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) [سورة الأعراف : من الآية ١٤٢] قال : ((وقرى (هارون) بالضم على النداء))^(٣٨).

الخاتمة :

بعد هذا الجهد المتواضع في رحاب أحد علماء النحو ألا وهو (الزمخشري) نودُ تسجيل نتائج البحث وكالاتي :

١. انماز الزمخشري عن سابقه بوضع مقدمة لكتابه شرح فيها الدافع لتأليف كتاب (المفصل في علم الاعراب) ، وعرض منهجه في التأليف وذكره في المقدمة ولم نشهد ذلك عند النحاة المتقدمين.
٢. ألف الزمخشري كتابه (المفصل) في وقت قياسي ومدة لم تتجاوز العام ونصف العام ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عقلية جبارة متفتحة لهذا الرجل ويشهد لذلك أيضاً أسلوبه في تناول المسائل النحوية وابتعاده عن فلسفة العامل كما كان يفعل المتقدمين من النحاة.
٣. خالف الزمخشري رأي النحاة بعدم الاستشهاد بشعر المولدين فاستشهد بشعر أبي نؤاس وأبي تمام وهو بهذا يُعد من أكثر النحاة جرأة وشجاعة ومحرراً من قيود الزمن التي فرضها النحاة للاستشهاد ، وهي قيود أزهدت روح البحث النحوي وجوهره.
٤. لم يتعصب الزمخشري لمذهب دون آخر وإن غلب عليه الميل إلى مدرسة البصرة فكان يوازن بين الآراء وصولاً للصائب منها .
٥. إنَّ الزمخشري كان راغباً بشدة بأن يضع اسمه ضمن قائمة النحاة الذين يشار لهم بالبنان ، ويتضح ذلك جلياً بسرعة تأليفه لكتابه (المفصل) مقابل تردده في التأليف بمجال التفسير ، ولعل السبب وراء ذلك يعود إلى إدراكه التام بأنه سيتعرض لانتقادات لاذعة من قبل خصومه ولاسيما في الآيات التي تتسم بطابعها الفقهي والمبينة لأحكام دينية خالصة ، فالزمخشري كمعتزلي المذهب وظف ذلك في توجيهه لبعض الآيات على نحو ما تجلّى في البحث مما أثار حفيظة معارضيهِ وانتقدوه بصرامة.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث :

١. ينظر: معجم الادباء : ١٢٩/١٩ ، ووفيات الاعيان : ١٧٠/٥ ، وأنباه الرواة : ٢٦٦/٣ ، والمدارس النحوية : ٢٨٣.
٢. ينظر: معجم الادباء : ١٢٩/١٩.

٣. مقدمة كتاب المفصل: ٣١.
٤. مقدمة شرح المفصل: ٥ / ١.
٥. ينظر: الايضاح في شرح المفصل: ١١ / ١.
٦. ينظر: تطور الدرس النحوي : ٩٩.
٧. ينظر: وفيات الاعيان : ١٧٠ / ٥.
٨. تطور الدرس النحوي : ٩٩.
٩. ينظر: الزمخشري وجهوده في النحو : ٧٢.
١٠. ينظر : المفصل : ٤٥.
١١. ينظر : المصدر نفسه : ٢٧٧.
١٢. الفائق في غريب الحديث: ١١٦.
١٣. المفصل : ٣٣١.
١٤. المصدر نفسه : ٢٥٨.
١٥. المصدر نفسه : ١٢٣.
١٦. المصدر نفسه : ٢٧٤.
١٧. المصدر نفسه : ٤٨.
١٨. المصدر نفسه : ٢٤٧.
١٩. المصدر نفسه : ٢٧٣.
٢٠. المصدر نفسه : ٣٢٨.
٢١. الزمخشري وجهوده في النحو : ٧٧.
٢٢. ينظر : النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل : ٢٥٣.
٢٣. ينظر : القواعد النحوية : ٢٦٧.
٢٤. ينظر : المعاجم العربية : ١٢٦.
٢٥. ينظر : تاريخ آداب اللغة العربية : ٤٧ / ٣.
٢٦. فقه اللغة : ٢٦٩.
٢٧. ينظر : الزمخشري وجهوده في النحو : ٧١.
٢٨. المفصل : ٦١.
٢٩. ينظر : تعريف الدارسين بمنهاج المفسرين : ٥٣٢.
٣٠. ينظر : الكشف (مقدمة المحقق) : ١٥.
٣١. ينظر : الكشف : ٤٨١ / ١.
٣٢. الكشف : ٥٩٨ / ١ - ٥٩٩.
٣٣. المصدر نفسه : ٢٢٨ / ١.
٣٤. المصدر نفسه : ٤١٤ / ١.
٣٥. المصدر نفسه : ١١٥ / ١.
٣٦. المصدر نفسه : ٣٥٩ / ١.
٣٧. المصدر نفسه : ١١ / ٣.
٣٨. المصدر نفسه : ١١١ / ٢.

روافد البحث :

- القرآن الكريم.

١. إنباه الرواة على أنباء النحاة : القفطي ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
٢. الإيضاح في شرح المفصل : ابن حاجب أبو عمرو عثمان بن أبي بكر يونس الدوني (ت ٦٤٦هـ) ، تح: إبراهيم محمد عبد الله ، دار سعد الدين، القاهرة- مصر ، ط ٢ ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
٣. تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، مطبعة الهلال ، ١٩٣١م.
٤. تطور الدرس النحوي : حسن عون ، معهد البحوث والدراسات النحوية ، ١٩٧٠م.
٥. تعريف الدارسين بمناهج المفسرين : د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ، دمشق ، ط ٣ ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٦. الزمخشري وجهوده في النحو : نادر سالم عطية ، دار جرير للطباعة والنشر ، ط١ ، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
٧. شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن يعيش النحوي الموصللي (ت ٦٤٣هـ) ، تح: احمد السيد سيد أحمد ، مراجعة: اسماعيل عبد الجواد عبد الغني ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة - مصر ، (د.ت).
٨. الفائق في غريب الحديث : الزمخشري ، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، ط٢ ، (د.ت).
٩. فقه اللغة : علي عبد الواحد وافي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط٤ ، ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م.
١٠. القواعد النحوية : عبد الحميد حسن ، ط٢ ، ١٩٥٣م ، بدون ناشر.
١١. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، ضبطه وصححه ورثبه: مصطفى حسين أحمد ، الناشر: دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١٢. المدارس النحوية : شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط١١ ، (د.ت).
١٣. المعاجم العربية : عبد الله درويش ، مطبعة الرسالة ، مصر ، (د.ت).
١٤. معجم الادباء : ياقوت الحموي ، دار المأمون ، دار المستشرق ، بيروت ، ط٢ ، (د.ت).
١٥. المفصل في صناعة الاعراب : الزمخشري ، قم له ووضع حواشيه وفهارسه : الدكتور اميل بديع يعقوب ، دار الكتب العربية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٦. النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل : شعبان عوض محمد العبيدي ، منشورات جامعة قاريونس ، ١٩٨٩م.
١٧. وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان شمس الدين احمد بن أبي بكر ، تح: احسان عباس ، دار صادر ، بيروت- لبنان ، ١٩٦٨م.